محنة القومية العربية

الأستاذ أحمد الصوفي

(الموصل)

بدا الصراع الدموي بين القومية العربية وبين الشعوبية بعد ان تحرر العراق العربي من نير الاستعمار الفارسي في عهد خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ، وانضمام هذا القطر العربي الى الام الوطن العربي الكبير وربط مصيره باشقائه الاقطار العربية الاخرى كسوريا ومصر واليمن والحجاز والاقسام الاخرى من الوطن العربي الكبير الامر الذي ادى الى تكالب الشعوبيين وازدياد حقدهم على القومية العربية التي حملت رسالة الاسلام الخالدة وانارت بمشعلها الوهاج وانوارها الساطعة البشرية قاطبة .

والقومية العربية الخالدة التي حملت راية الاسلام هي التي اوجدت مبدأ الضمان الاجتماعي الذي دعت اليه تعاليم الاسلام في جوهره يكفل للفرد العيش في سعة ويؤمن للسكان اجمعين ضمانا اجتماعيا قويا ضد العاهة والوفاة والعجز والشيخوخة ولم تمض حقبة من الزمن حتى فتح العرب المعمورة باجمعها واسسوا في البلاد المتحررة انظمة مستمدة من تعاليم الدين الحنيف تكفل لجميع الشعوب على اختلاف الوانها وعقائدها وقومياتها الحرية والمساواة وحرية التملك وحرية العبادة وحرية ابداء الراي . هذه هي المبادىء السامية التي حملتها القومية العربية الخالدة للبشرية اجمع ، الامر الذي ادى الى حقد الشعوبية واليهودية وقد بدأ التآمر على القومية العربية منذ تولى الخلافة الفاروق العظيم عمر بن الخطاب (رضي) وما كان يظن ان تنتهي حياة ذلك العادل المحب لرعيته بضربة خنجر ولكن ذلك حتى يعلم الناس حقد الشعوبيين على القومية العربية ، فان عمر اذا كان قد ارضى العرب بما صنعه وارضى العجم بما افاض عليهم من العدل فقد اغضب كبراءهم وذوي السلطان عليهم لانه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم الامر الذي ادى الى ان يقتله رجل اسمه فيروز ويلقب بابي لؤلؤة الفارسي الشعوبي .

وتحدثنا المصادر التاريخية : ـ ان اول مخطط هدام للقضاء على القومية العربية قام بوضعه (عبد الله ابن سباء) المعروف « بابن السوداء » وقد ولد هذا اليهودي الحاقد في مدينة صنعاء باليمن وتثقف بالثقافة الفارسية واظهر اسلامه لينتقم من المسلمين ويظل الناس وكان يصبغ مبادئه الهدامة بصبغة دينية حتى يضلل بها عامة الناس فكان يقول : ـ لقد عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد ، وبذلك وضع مذهب الرجعة اي رجعة محمد كما روج بين المسلمين نظرية الحق الالهي التي اخذها من الفرس الذين احتلوا قبل الاسلام بلاد اليمن موطنه الاصلي .

وقد هيأ ابن سباء العقول الى الاعتقاد بان عثمان ابن عفان اغتصب الخلافة واخذ يؤلب الناس عليه ويدعوهم الى الثورة على خلافة عثمان بن عفان وبعث دعاته لنشر هذه المبادىء الهدامة بين عامة الناس وقد نجحت دعوة ابن السوداء في البصرة والكوفة وفي مصر ولم تنجح في الشام

وحقق ابن سباء اليهودي الهدام ما كان يرمي اليه من تاليب الولايات العربية على الخليفة عثمان بن عفان وقد بلغت دعوته الغاية منها حيث انضم كثير من اصحاب النفوذ والجاه اليه مما ادى الى قتل الخليفة عثمان بن عفان بعد ان حاصره الثوار في داره 22 يوما ، فكان ذلك اول فصول هذه المأساة وما اعقبها من نشوب الحروب الاهلية في البلاد العربية واخذت الكوارث الدامية تحل بالامة العربية الواحدة تلو الاخرى ، منها واقعة الجمل التي حدثت في جوار البصرة بين انصار عثمان بن عفان وبين الخليفة

علي بن ابي طالب قتل في هذه الواقعة (10) آلاف من شجعان العرب ، وليت الامر وقف عند الحد بل اخذت الحروب الاهلية بين العرب تتعاقب بفضل الشعوبيين والخرق يتسع بين العرب الذين حملوا راية الاسلام فحدثت حرب صفين بين الخليفة علي بن ابي طالب وبين معاوية بن ابي سفيان المطالب بدم عثمان ، ولم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة امرها الا مقدمة لما هو اشد منها هولا هو الحرب في صفين . انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شجعان العرب وامجادهم تسعون الفا ، وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تاريخها . ومما يزيد الاسف ان هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول الى تقرير مبدأ ديني او رفع حيف بالامة انما كانت لنصرة شخص على شخص وقد نتج عن حرب صفين احداث محزنة ومؤسفة حيث انها ادت الى البلبلة والانقسام في صفوف الامة العربية . فقد عاد الشاميون من هذه الحرب الاهلية الى دمشق وانصرف العراقيون الى العراق ولكن شتان بين رجوع اهل الشام وبين اهل العراق عاداهل الشام متفقي الكلمة ورجع اهل العراق وقد وقع الخلاف بينهم ودب الانقسام الى صفوفهم ولقد اقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويتضاربون بالسيوط مما ادى الى قيام حزب جديد اطلق على نفسه (الخوارج) ثم اصبحنا امام ثلاثة احزاب بعد ان كنا امام حزبين اثنين . اولا حزب الشيعة ، ثانيا حزب الامويين ، ثالثا حزب الخوارج، واخذت هذه الاحزاب الثلاثة في التطاحن مما ادى الى اضعاف مقدرة القومية العربية ومناعتها لصد العدوان الداخلي الذي يقوم به الرتل الخامس فكان نفوذ فرق الزنادقة من مجوسية ومزدكية يمتد في فسيح البلاد الاسلامية للكيد ونشر الفوضى تحت شعارات وبراقع مختلفة الالوان حتى نمت الاحزاب الهدامة على حساب القومية العربية .

وكان الامويون قد جردوا السيف لهذا الخطر الداهم ولذلك تواترت الشكاوي على مثل والي العراق زياد بن ابيه وخلفه الحجاج بن يوسف الثقفي لان ولايتهما كانت في قلب الفتنة (العراق) وفي مهب ريحها فلما زالت الدولة الاموية بدسائس الشعوبية الماكرة ووجد الزنادقة والاحزاب الشعوبية الهدامة مجالا واسعا لبث سمومهم وهدم كيان القومية العربية احس الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور بالخطر فاعمل السيف في ارباب كابي مسلم الخراساني وحزبه، الا انه لم يتفرغ لها التفرغ الكامل فقضى والدولة العباسية مهددة بالزوال ، وتناول السيف خليفته المهدي ثم ابنه الهادي ثم اخوه الرشيد .

ولما وقع الشقاق والخلاف بين الاخوين الامين والمامون وجد الزنادقة والاحزاب الهدامة الاخرى متنفسا آخر فازداد نشاطهم . ومن اخطر الحركات التي انبثقت لهدم الاسلام والقضاء على القومية العربية وسحق تعاليم الدين كلها سعيا الى تحطيم السلطة السياسية التي تقوم على هذه التعاليم ـ تلك الحركة التي تزعمها رجل كان اذكى واخطر من ابن سباء ، وهذا الرجل هو المدعو « عبد الله بن ميمون القداح » وهو ابن فقيه ملحد من جنوب فارس ، وكان ميمون بن ديصان امام جماعة من الملحدين يزيفون الاحاديث وينشرون في العامة مبادىء الانكار والهدم والاباحة ويظهرون في نفس الوقت تشيعا لآل البيت لاخفاء مقاصدهم الحقيقية ، وما كاد ابن ميمون ينظم جمعيته السرية الهائلة في جنوب فارس حتى بعث بدعاته الى جميع الاقطار العربية يبثون مبادىء التقويض والهدم والتبشير بالمهدي المنتظر . وكان داعيته في العراق رجلا يسمى « الفرج بن عثمان القاشاني » ويعرف « بذكرويه » وهو فارسي من مدينة قاشان ، وكان يبث الدعوة سرا ثم نهض في سنة 278 هجرية رجل من اتباعه داعية في الاسهواز والدس بمكان يعرف بالنهرين على مقربة من الكوفة يبث الدعوة جهرا فاستجاب له جمع كثير ولقب بـ (قرمط) وكان يدعو الى خروج المهدي المنتظر الذي يملأ الارض بعدله وكان يأخذ من كل واحد من اتباعه دينارا للامام وجعل عليهم اثني عشر نقيبا سماهم الحواريين ، ولما علم عامل الناحية بامره قبض عليه وحبسه نفر من سجنه واختفى حينا وازداد انصاره تعلقا به ، وقالوا انه رفع الى السماء ثم ظهر في ناحية اخرى من الكوفة وعكف على بث دعوته ثم فر الى الشام واختفى بعد ذلك ولم يقف له احد على خبر ونشأ هذا المذهب الهدام الجديد في انحاء الكوفة واطلق على انصاره (القرامطة) نسبة الى داعيتهم قرمط .

وهكذا قام حزب القرامطة على الشيوع والاباحة فقد بدأ قرمط يجمع من انصاره الضريبة العامة بنسب صغيرة وبنسب كبيرة ، ثم الغى الملكية الفردية ثم قرر شيوع المرأة وغيره من صنوف الاباحة القائمة على استغلال اخس الشهوات البشرية وبذلك نظم مجتمعا شيوعيا وسرعان ما تحول القرامطة الى عصابة هائلة من السفاكين والاشقياء تقتل خصومها وتستحل اموالهم واعراضهم وتنشر الدمار والرعب

فيما حولها ، وقد اجتاحت دعـوة القرامطة انحـاء البحرين والبصرة والاحساء وعمان والجزيرة ، وامتدت الى سوريا والحجاز ، وبينما كان القرامطة يسيرون بانفسهم الى الفناء من جراء المعارك الطاحنة كانت دعوة عبد الله بن ميمون السرية تجتاح بلاد اليمن وتبشر بقرب ظهور المهدي فانتشرت الدعـوه بين القبائل بسرعة واغاروا على من حولهم من القبائـل بالسبي والنهب والقتل وارسلوا اموالا كثيرة الى ولد ابن القـداح ثم انتقلت هذه الدعـوة الى افريقيـة وانتشرت الدعوة فى قبائل المغرب وفى مصر ثم ظهر حزب ثوري سري هدام وهو اخطر حـزب عرفـه الاسلام ، وهذا الحزب هو (الطائفـة الاسماعليـة والباطنية) استمدت مبادئها من تعليـم ميمـون بن ديصان وولده عبد الله ومن القرامطـة ولبثت هـذه الطائفة مدة قرن ونصف قرن ارعبت خلالهـا الدول الاسلامية من فارس الى الشام وحشدت جموع البسطاء من العامة باسم الدين لتحقيق الاغراض السياسيـة واعتمدت فى محاربة خصومها على الاغتيال الخفـي المنظم باكثر مما اعتمدت على الحرب العلنية ، وكانت القومية الفارسية تعتمد على الدعوة الثورية هدفـت بثوراتهـا المتعاقبة الى تحطيم نير الدولة العباسية واسترجاع حريتها .

ولما ولي المعتصم الخلافة وكانت امة تركيـة اهمل العنصر العربي والفارسي واعتمد على الاتراك الذين اتخذهم حرسا له واسند اليهم مناصب الدولة كما فعل اخوه المأمـون مع الخراسانيين . وكان المعتصم اول خليفة عباسي اعتنى باقتنـاء غلمـان الاتراك فبعث الى سمرقند وفرغانة لشرائهم وبذل فيهم الاموال الطائلة والبسهم انواع الديباج ومناطـق الذهب وكان غلمان الاتراك يتدفقون سنة بعد سنـة على اسواق بغداد حتى كثر عددهم ولم يلبث هؤلاء ان اصبحوا آفة على اهل بغداد الذين عانوا من عنتهـم وجورهم شيئا كثيرا .

وتحدثنا المصادر التاريخية ان المعتصم كان قد اقصى العرب عن مناصب الدولة المدنية والعسكرية وعن ديوان العطاء واتاح بذلك الفرصة لغلمان الاتراك فزاد نفوذهم واصبحوا خطرا على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية . وقد ادى ظهور العنصر التركي الى تزايد قوة هذا العنصر الدخيل على البلاد وضعف العرب وتفرقهم الى قبائل وبطون مما ادى الى هجرة عدد كبير منهم من المدن والقصبات حيـث فضلوا الاقامة والعيش فى الارياف والصحاري تخلصا ممـا كانوا يلقونه من غلمان الاتراك المرتزقة من اهانـات وكبت للحريات ومصادرة للاموال والممتلكات ، ونتج عن ذلك ان غلمان الاتراك وجدوا انفسهم منفرديـن بالحكم والسلطان واصبحوا هم الآمريـن فى الدولـة العباسية ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تعدى الى ان امتدت ايديهم على حياة الخلفاء واموالهم .

فعندما استلم المتوكل الخلافة وحاول ان يكف ايدي غلمان الاتراك عن التدخـل فى شؤون الدولـة وسياستها قتلوه وصار ابنه المنتصر الذي اشتـرك معهم فى قتله طوع بنانهم ، واصبحت الدولة العباسية ميدانا للفوضى والدسائس وغدا امر تولية الخليفـة وعزله او حبسه او قتله فى ايدي (غلمان الاتراك) .

ومن هنا بدا ظهور طوائف الملوك فى الوطن العربي المستقلة وشبه المستقلة فى اطراف الدولة العباسية كدولة الصفارية والسامانيـة والغزنوية والعلوية فى الشرق العربي والدولة الاغلبية بتونس والفاطمية ببلاد المغرب والطولونية والاخشيدية بمصر وبنـو امية بالاندلس ودولة الزيدية باليمن .

وبينما كان الشعب العراقي العربي ينظر الى هذه الكوارث والمآسي التي حلت بالعـراق على ايـدي الشعوبيين بكل يقظة وحذر لكـي يتخلص من هـذه الطغمة المرتزقة اذا بسيل جارف آخر من الشعوبيين يتدفق صوب بغداد وهو عنصر جديد من بلاد الديلم يعرف باسم (آل بويه) فانتزعوا الحكم والسلطان من غلمان الاتراك ببغداد وجعلوا العراق ملكـا لاحدهـم يتصرف فيه كما يشاء ، والخليفة الشرعي تابـع في قصره يأتمر بأمـره . وقد ارتكب البويهيـون اكبـر جريمة فى حق الشعب العراقي اثناء سيطرتهم على مقدرات العراق بتشجيعهم الطائفية بين السكان .

وتحدثنا المصادر التاريخية ان معـز الدولـة البويهي الذى كان يسيطر على مقدرات العراق اصدر امرا فى بغداد فى العاشرة من شهر محرم سنة 352 هـ يقضي بالزام الناس ان يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الاسواق والبيع والشراء وان يظهروا النياحة (الطبك) ويلبسوا قبابا معلوها بالمسوح (الاكفان) وان يخرج النسـاء ناشرات الشعور ومسودات الوجوه قد شققن ثيابهـن يدرن فى البلد نائحات ويلطمن وجوههن على الحسن ابن علي ، فعمل الناس ولم يكن للخليفة العباسي قدرة على منع هذه البدعة السيئة التي لم يكن لها اي صلة بالدين ، وقد بذل البويهيون جهودا عظيمة لنشر روح الطائفية فى جميع ارجاء هذا الوطن ولبثوها بصـورة

رسمية الامر الذى ادى الى انقسام الشعب العراقي العربي الى طوائف متنازعة متنافرة ، ولا تـزال روح الطائفية البغيضة تنخر جسم الشعب العراقي العربي المسلم الى يومنا هذا . وفى اوائل القرن الخامس الهجري ظهر عنصر جديد من الشعوبيين المرتزقة جاءوا من وسط آسيا متجهين صوب العراق وهم الغز من الاتراك وعلى راسهم البيت السلجوقي زحفوا الى بغداد وامتلكوها وازالوا عنها آل بويه واصبح آل سلجوق هم المسيطرين على مقدرات الدولة العباسية وانتشر الغز فى طول البلاد وعرضها يدمرون القرى والقصبات ويصادرون اموال الناس دابهم القتل والنهب وحرق القرى وسفك الدماء مما ادى الى خراب آلاف القرى فى انحاء العراق ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى خرج سيل المغول الجارف واجتاح الدولة العباسية وازالها من الوجود ، وقد كان احتلال المغول للعراق فى القرنين الثالث والرابع عشر الميلادي وسقوط الخلافة العباسية فى بغداد الضربة القاضية على العراق ، وفى هذه الحقبة التاريخية التي مرت على العراق والتي استمرت عدة قرون كان الشعب العراقي العربي يتلقى ضربات متوالية من الشعوبية المجرمة ولو ان اي شعب من شعوب العالم اصابه ما اصاب الشعب العراقي العربي المسلم الباسل المؤمن بربه الشعوبيون اثناء سيطرتهم على مقدرات العراق لزال من عالم الوجود واصبح فى عداد الامم المندثرة ، ولكن الشعب العراقي العربي المسلم الباسل المؤمن بربه وقوميته صمد وقاوم مقاومة المستميت فى سبيل صون كيانه وعروبته . وقد وجد له عرينا يحتمي فيه ليصد الضربات الموجهة ضده من هذه الذئاب المفترسة فاختار البطائح (الاهور) الواقعة فى العراق فلاها يحتمي فيها ويتحصن بالمياه والسفن ضد السلطان البويهي وصارت تلك البطائح معاقل حصنة والف زعماء العرب مشيخات يتولى ادارة كل مشيخة منها زعيم من العشيرة اثناء سيطرة آل بويه ثم مدة حكم آل سلجوق التركمانيين الزاحفين من اواسط آسيا (بلاد ما وراء النهر) .

ولما استعاد العباسيون بعض نفوذهم فى بغداد رجع سكان البطائح الى طاعة بني العباس واحترموا النظام واخذوا يؤدون الخراج الى عمال الخلفاء العباسيين كما كان الامر من قديم الزمان وازدادت الهجرة من المدن والقصبات الى البطائح مرة ثانية عندما اكتسحت جيوش المغول المدن العراقية تخلصا من القتل والنهب ، وعاد سكان البطائح الى الانفصال عن حكومة المغول فى بغداد ، والف زعماء البطائح مشيخات وتحصنوا فى قراهم المحاطة بالمياه وازداد نفوذ الشيوخ والزعماء الذين كانوا يسيطرون على البطائح ، وبمرور الزمان نشأت الاقطاعيات فى العراق واصبحت كل مشيخة مؤلفة من عدة قرى يسكنها ابناء عشيرة واحدة مستقلة عن المشيخات الاخرى ، واصبح شيخ القبيلة هو الحاكم بامره يدير شؤون عشيرته وفق التقاليد والعادات الموروثة منقطعة عن العالم الخارجي يعيشون فيها على زراعة الارز والدخن بطريقة ابتدائية وتربية الماشية عراة حفاة تفتك بهم الاوبئة والامراض العفنة ويستولى الجهل على عقولهم محرومين من كل وسائل الحياة وبقوا على هذه الحالة السيئة الى ما بعد فتح الدولة العثمانية للعراق على يد السلطان سليمان القانوني فى سنة 941 هجرية (1543 ميلادية) وكان حكم الولاة العثمانيين نافذا فى المدن والقصبات ، اما القبائل التي كانت تقطن على ضفاف الانهر وفى البطائح من جنوب بغداد حتى الخليج العربي فانها كانت مع ولاة الدولة العثمانية فى حروب وثورات دامية مستمرة. ولقد حاولت الجيوش العثمانية مرارا اخضاعهم بارسال الحملات العسكرية الواحدة تلو الاخرى زهاء ثلاثة قرون متواصلة لم تحقق الا بعض نصر موقت ، اذ ما كانت تعود الحملة العسكرية الى قواعدها بعد حملة تاديب عارمة حتى يثور سكان البطائح مرة اخرى ويعلنوا عصيانهم ضد الدولة العثمانية هذا من جهة ، ومن جهة اخرى شرع ولاة بغداد يزرعون بين سكان البطائح روح التفرقة والتباغض فكانوا ينعمون على بعض الشيوخ والزعماء منهم بالالقاب (الباشوية) ويغرقون عليهم العطايا من اراض واموال دون الآخرين لبث روح التنافس والحسد بينهم فيلجأون الى ضرب بعضهم بعضا .

وفى خلال هذه الحقبة الطويلة من تاريخ العراق ظل سكان البطائح منقطعين ــ او يكادون ــ عن العالم الخارجي محرومين من كل وسائل التمدن الحديثة صحية كانت ام ثقافية ام اجتماعية محتفظين فى الوقت نفسه بسجاياهم العربية الخالصة كالكرم والشجاعة والذكاء الفطري وسرعة الخاطر وقوة الملاحظة والسليقة الشعرية والاخذ بالثار وحماية الخارجي محرومين من كل وسائل التمدن الحديثة مستمر مع الدولة العثمانية وتنكر دائم لها حتى انحسر ظلها عن العراق على اثر احتلال الجيش البريطاني للعراق اثناء الحرب العالمية الاولى التي نشبت سنة 1914 .